من تراب الطريق! (٢٤٨)

كلفة الثقافة (*)

نشأنا فى زمن ساد فيه ما يقترب من مبدأ مجانية الثقافة .. من كتب الهلال التى لازلت أقتنيها فى مكتبتى الخاصة وعليها أثمانها : بسعر (٨) قروش، اقتنيت ولا زلت من طبعات الخمسينيات : عبقرية محمد للعقد، وهارون الرشيد لأحمد بك أمين، وأبو الشهداء الحسين بن على للعقد، وعمر مكرم لمحمد فريد أبو حديد، وزعيم الثورة سعد زغلول للعقد، وأشعب أمير الطفيليين للحكيم، وحديث رمضان للإمام الأكبر الشيخ المراغى، وأهل الكهف للحكيم، ومحمد على جناح للعقاد، وفى الطريق للمازنى، وعبقرية عمر للعقاد، وعلمتنى الحياة لنخبة من كتاب الشرق والغرب بإشراف أحمد أمين، وآمنة بنت وهب أم الرسول لبنت الشاطئ، ومدرسة المغفلين للحكيم، وفاطمة الزهراء والفاطميين للعقاد، ومدرسة الشيطان للحكيم، واعترافات شبابى للكاتب الروسى ليوتولستوى، وعبقرية خالد للعقاد ... وغيرها .

وفى الستينيات رفعت دار الهلال سعر كتاب الهلال من (٨) إلى (١٠) قروش .. ما بين طبعتى الحسين أبو الشهداء للعقاد أكثر من (١٥) عاما، ومع ذلك لم يرتفع سعر الطبعة الثانية (نوفمبر ١٩٦٩) إلا قرشين، فتشجعت واشتريتها للمرة الثانية فالسعر يا بلاش (١٠) قروش، ومن كتب الهلال التى اشتريتها فى حقبة الستينيات بـ (١٠) قروش : إسرائيليات (حتى لا ننسى) لأحمد بهاء الدين، ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وما

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٢٣

يقال عن الإسلام للعقاد، وعلى هامش الغفران للويس عوض، وغراميات فيكتورهوجو للطفى سلطان، والإسلام فى القرن العشرين للعقاد، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل لعلى أدهم، والبحث عن شكسبير للويس عوض، ومطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية للعقاد، ورسائل نهرو إلى أنديرا لأحمد بهاء الدين، ومذكرات شارلى شابلن جزءان لصلاح حافظ، وتاريخ الفكر المصرى الحديث للويس عوض ... وغيرها .

وفى أواخر الستينيات مع ارتفاع الأسعار، والورق والطباعة، لم تزد دار الهلال الطبعات الضخمة الممتازة إلاّ قرشين، فبسعر (١٢) قرشا اقتنيت ولا زلت مطول العقاد عن ابن الرومى حياته وشعره، ومطول محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوى، وحياة المسيح للعقاد، ودراسات فى النظم والمذاهب للويس عوض، وتوفيق الحكيم فنان الفرجة وفنان الفكر للدكتور على الراعى، ومطول حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد .. وغيرها .

ولم ترتفع أسعار كتاب الهلال - ارتفاعا جنونيا !!! - إلاّ فى السبعينيات، فزادت قرشين دفعة واحدة، أى سعر الأعداد الممتازة فى آخر الستينيات، فوجدت فى مكتبتى من كتب الهلال بـ (١٢) قرشا، الإسلام دعوة عالمية للعقاد، واليسار الأوروبى المعاصر لأمير إسكندر، بل ووجدت دراسات أوروبية للويس عوض، وأيضا كتابه الفنون والجنون فى أوروبا ١٩٦٩ بسعر (١٠) قروش، ومع أن كتاب " الوصول إلى السعادة " جمع بين التأليف للفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل والترجمة للدكتور نظمى لوقا، إلاّ أننى وجدت ثمنه فى آخر ١٩٧٧ - (١٥) قرشا فقط .. كانت الأسعار حتى عهد قريب من أواخر التسعينيات لا ترتفع إلاّ بالقروش، وكل هذه المكتبة النفيسة المتكاملة التى تعمدت أن أذكرها واحداً واحداً، لا تعادل ثمن كتاب واحد فى هذه الأيام .. فقد ظلت لغة القروش سائدة حتى عهد قريب كما كانت بالنسبة للصحف : قرش، ثم قرش وتعريفة، ثم قرشان .. حتى جاوزت الجنيه الآن، ولم يعد فى متناول

الجامعى الموظف أن يواظب على شراء ولو صحيفة واحدة كل يوم، لأن ذلك سوف يكبده فى الشهر ٣٢ جنيها أخذا بسعر العدد الأسبوعى .. أما الكتب فقد طفرت أسعارها إلى أرقام بالجنيهات ليس فى وسعه أن يفكر فى اقتناء واحد منها وإلاّ كبده ذلك مع سعر الجريدة أكثر من نصف مرتبه !!

معنى أن يتضاعف سعر الكتاب من (٨) قروش إلى (٨) جنيهات، أن تكون الدخول قد تضاعفت مائة مرة ! .. فهل تضاعفت الدخول بهذا القدر، وهل بقيت القوة الشرائية للجنيه - ودعونا من القروش فلم يعد لها ذكر إلاّ فى كتب التاريخ - على حالها لم تنخفض حتى القاع بفعل التضخم الذى أتى ويأتى على كل شىء !

معنى ذلك، ولا معنى سواه، أن تصبح الثقافة ترفاً لا يقدر عليه أوساط الناس ناهيك بالفقراء، أما الأغنياء فليسوا بحاجة أصلاً إلى الثقافة ولا تشغلهم ولا يطوف بها خيالهم ! ..وانحصر اقتتال الناس على رغيف العيش وغذاء البطون، أما غذاء العقول فقد ودعه الناس وداعاً يستحضر عنوان : "وداعاً للسلاح" الذى أخرج سينمائيا عن رواية الكاتب الأمريكى إرنست همنجواى !

ودعنا مجانية الثقافة إلى غير رجعة، فودعنا معها الفكر والثقافة، وها نحن بسبيل وداع مجانية العدالة، لنفارق معها الإنصاف والعدل وعلى كل مظلوم أن يسند ظهره إلى الحائط .. إن استطاع أن يجد حائطاً !!

ترى ماذا نحن فاعلون فى الأيام السوداء التى أدركتنا .. عفوا، لقد نسيت الحكمة القائلة : " استمتع بالسيئ فالأسوأ قادم " !!!